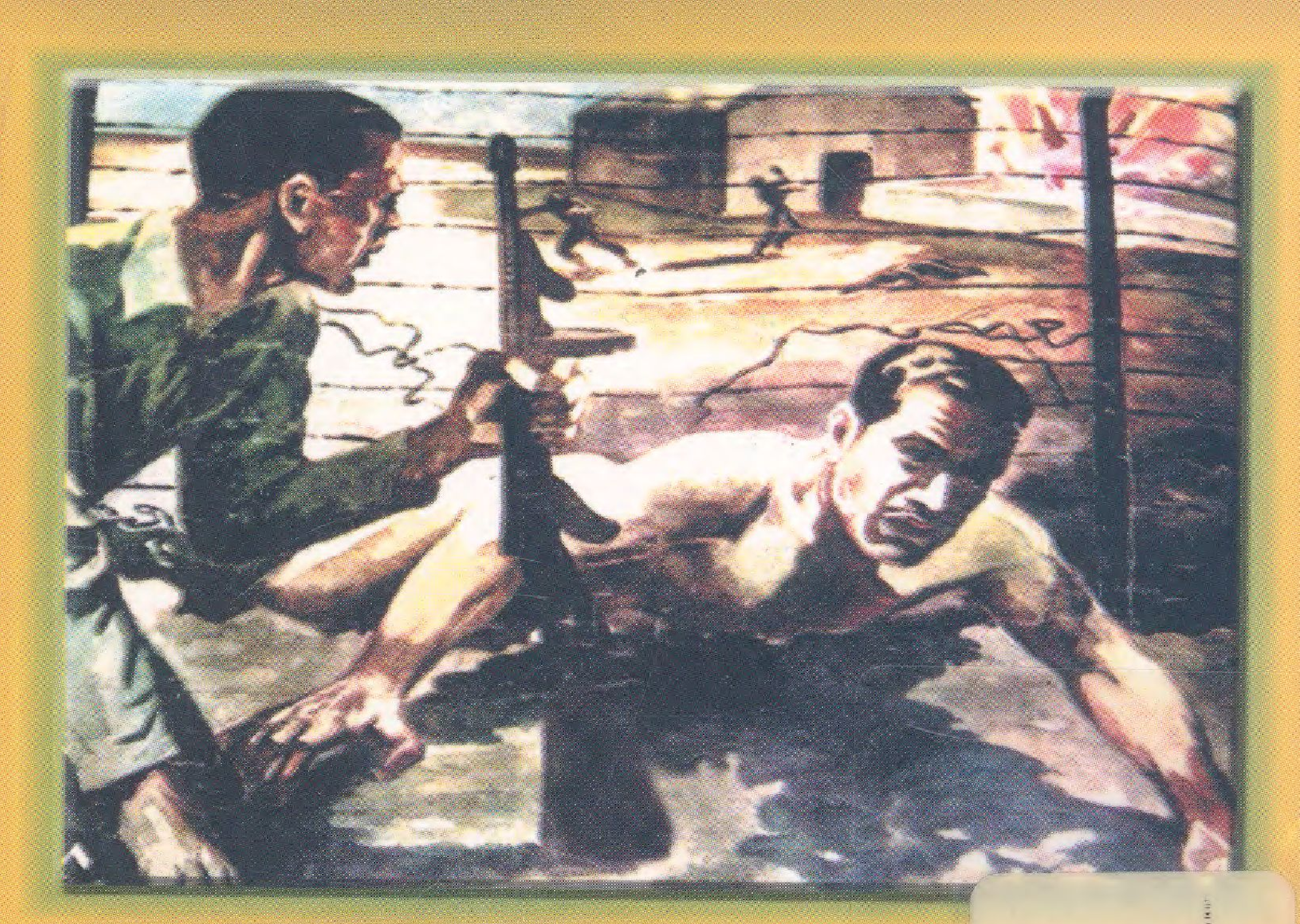
مجموعة وقائع طبية

الكتاب الثانى

د. مرسى عرب



م... الفدائيين ..؟!
فى منطقة القنال ..

أحمد أمين

مجموعة وقائع طبية

الكتاب الثانى

مع كتائب الفدائيين

فى

منطقة القنال ١٩٥١

الناشر مؤسسة حورس الدولية

للنشر والتوزيع

١٤٤ش طيبة. سبورتنج. الأسكندرية

رقم الإيداع

٢٠٠٠/١٧٩٧٠

الترقيم الدولى

977-5902-50-9

المحتويات

مقدمة

فى هذا الجزء مِن المجموعة التى أطلقت عليها اسم "الوقائع الطبية" جانب من قصة الملحمة التاريخية التى خاضها شعب مصر ضد المحتل الإنجليزي الغاصب لبلادنا ودور شباب الجامعات على وجه التحديد فى ممارسة الكفاح المسلح ضد الاحتلال الإنجليزي لمنطقة قنال السويس فى أوائل الخمسينيات . ولاأستطيع بالطبع أن أدعى أنِى مؤهل لكتابة تاريخ هذا الكفاح ، غير أن لى فِى هذا الأمر رؤية شاهد عيان ، ومشارك فى الأحداث على نحو كان له أثر عميق فى مخزون التجارب الذاتية الهائلة التى مررت بها فى مراحل حياتى المختلفة ، وهذه التجارب تستحق أن تحكى قصتها للأجيال، ليس فقط ليعرفها هؤلاء الشباب الذين لم يعيشوا تلك التجارب وإنما أيضا للأجيال التى عاشت هذه الفترة فى الخمسينيات وتحمل نفوس أصحابها ذكريات عميقة الأثر عن تلك الأحداث وقد يكون فى هذا كله متعة

ثقافية لا ينكر أثرها، ولكنني فى الحقيقة لم أقصد هـــذا الهدف وحده أو حتى أن تكون رواية هذه القصة جـزءا من سيرة ذاتية، وإنما قصدت أن أسجل الدور التــاريخى الذى لعبته كلية طب الإسكندرية من خــلال طلابها وأساتذتها ضمن أدوار أخرى عديدة ومشاركات خلاقة لم يتح للكثير من الناس الاطلاع عليها إطلاعا وافيــا أو تقدير آثارها العميقة بصورة كافية، ومن ثم فقد أصبــح لزاما عليّ وقد كنت مشاركا فى هـــذه الأحــداث أو صانعا لها فى واقع الأمر، أن أضع بعضا مما أعرفه عنـــها تحت الأضواء وفى ذلك على الأقل بعض الوفاء لفضــل أساتذة وزملاء شاركوا فيها أيضًا .

أما إذا ما سألني سائل لمن أهدى هذا الكتـــاب فلن أتردد بالطبع فى أن أقـــول أنـــه إلى أرواح كـــل الشهداء من طلاب الجامعات المصرية الذيـــن ســـالت

دماؤهم الزكية على أرض منطقة قنال السويس دفاعـــا
عن كرامة وطنهم عام ١٩٥١

المؤلف
أ٠د مرسى عرب

"١"

التدريب العسكرى الجامعى

فى الفترة التى كنت فيها طالبا بالجامعة كان هنـاك نظام للتدريب العسكرى لطلاب الجامعات يعتمد علـى التطوع، فيلتحق الطالب المتطوع فى برنـامج التدريـب العسكرى الجامعى حيث يقوم أثنـاء العـام الدراسـى بتدريبات بالكلية فى مواعيد صباحية قبل بدء المحـاضرات، للتعرف على استخدام البندقية مع تدريبات شبه رياضيـة، وكان المدربون من صف الضباط التابعين لإدارة التدريـب العسكرى الجامعى وبإشراف ضباط هذه الإدارة بالجيش.

وفى خلال الإجازات الصيفية كان الطلاب الذيـن أتموا التدريب خلال العام الدراسى يدعون للاشـتراك فى معسكرات صيفية لمدة شهرين لتلقى تدريبـات عمليـة ومحاضرات أكثر عمقا فى الشئون العسكرية، وكان علـى

الطالب أن ينتظم فى حضور ثلاثة معسكرات صيفية تسمى معسكرات الإعدادي والمتوسط والنهائي ليحصل بعدها على شهادة التخرج كضابط احتياط بالقوات المسلحة . وكانت المواد التى تدرس بهذه المعسكرات تتعلق بشئون الأسلحة الصغيرة ومبادئ علوم التكتيك والطبوغرافيا والتنظيم والإدارة - تقترب إلى حد كبير من البرنامج الذى يدرس لطلاب الكلية الحربية، وكان المعسكر النهائي هو معسكر التدريب المتخصص حيث يوجه الطالب الجامعى إلى أسلحة الجيش المختلفة كالمشاة أو الفرسان أو المدفعية للحصول بعد ذلك على ما يسمى الشهادة حرف ب و على رتبة ملازم ثان احتياط بالجيش فى فرع تخصصه.

وقد انتظمت فى هذا التدريب بمجرد دخولي إعدادي كلية الطب، وكان ذلك امتدادا لارتباطي بالتدريب العسكرى المماثل فى أثناء الدراسة الثانوية

وكنت مفتونا على الدوام بنمط الحياة العسكرية وما يحيط بها من سلوكيات النظام والجدية والالتزام ٠

وتبعا لنظام التدريب الجامعى التحقت بعد انتهاء السنة الإعدادية من كلية الطب بالمعسكر الصيفي للمرحلة الإعدادية من برنامج الضباط الاحتياط، وقد عقد فى ذلك العام بمنطقة الهايكستب خارج مصر الجديدة وكانت فى ذلك الوقت منطقة صحراوية بعيدة جدا عن القاهرة. وكان المعسكر يضم حوالي ٦٠٠ طالب من الجامعات المختلفة، ولم يكن من طلاب الطب فيه إلا حوالى خمسة طلاب، وكان أفراد المعسكر يشكلون كتيبة مقسمة إلى أربعة سرايا وكل سرية إلى ثلاثة فصائل، على نفس النمط القائم فى تشكيلات الجيش. ويقود هذه التشكيلات ضباط منتدبون من أسلحة القوات المسلحة .

وكان من نصيبى فى هذا المعسكر بالذات أن يكون قائد الفصيلة التى أنتمى إليها هو اليوزباشى (نقيب

بالرتب المقابلة حاليا) خالد محى الدين أحد قـواد ثـورة يوليو فيما بعد، وقد لفت نظرى منذ التعرف إليـه لأول مرة بشخصيته الجذابة ووجهه الباسم دائما بالرغم مـن الجدية والصرامة العسكرية، وكان فى ذلك السلوك مـن جانبه ما حببنا فى شخصه، فقد كان مختلفا عـن أغلبية ضباط المعسكر القائمين بالتدريب وإلقاء المحاضرات علينا . وكان من حظي أيضـا أن قـائد سـريتي كـان هـو "اليوزباشى" معروف الحضري، و هو أحد أبطال حـرب فلسطين المشهورين بالشجاعة والفداء. وكـانت تلـك الحرب قريبة العهد بذلك التاريخ، وقد كـان لمعـروف الحضرى دور بارز ومعروف فى اقتحام الحصـار الـذى ضربه اليهود على قوات الجيش المصرى بقرية الفالوجـا بفلسطين لتموين القوات المحاصرة هناك .

ولم يكن يلوح على الضابط الشـاب الباسـم الوجه خالد محي الدين وقتئذ أى علامات تدل على الدور

الوطنى الذى كتب له القدر أن يلعبه بعد ذلك فى تـاريخ مصر كأحد قادة ثورة يوليو ١٩٥٢.

وقد تخلفت عن حضور المعسكر الصيفى فى العـام الثانى لأننى كنت فى ذلك الصيف بين السنة الأولى والثانية من كلية الطب وهم سنتان متصلتان دراسيا و لذا كـان من اللازم التفرغ فى أثناء الصيف لاستذكار الـدروس وحدها. وبمجرد انتهاء السنة الثانية مـن كليـة الطـب سارعت للانضمام لمعسكر ضباط الاحتيـاط فى المرحلـة المتوسطة وكان قد أقيم فى ذلك العام فى منطقة الدخيلـة القريبة من الإسكندرية.

كانت تجربتى فى مرحلة "المتوسط" بالدخيلة مليئة بالإثارة وعمق التجربة، وكانت نتيجة الامتحان الســابق الذى عقد فى نهاية المرحلة الإعدادية أنني حصلت علـى الترتيب الثانى من بين الطلاب الستمائة مـن الجامعـات المختلفة، ولم يكن يسبقنى فى الترتيب إلا شخص واحـد

كان فى الواقع قريبا لأحد كبار اللواءات بالجيش، وأغلب الظن أن شيئا من ذلك كان وراء حصوله علـــى ذلـك الترتيب، ولكنه على أية حال كان شابا ممتازا حقا .

وبحكم هذا الترتيب فى نتيجة المرحلة الإعداديـة أصبح زميلى صاحب الترتيب الأول قائدا لكتيبة المعسكر الطلابية برتبة "باشجاويش الكتيبة " وأصبحت أنا قـائدا للسرية الأولى برتبة " باشجاويش ســرية" ونائبـا عـن باشجاويش الكتيبة فى حالة غيابه. ولم تكن رتب" ضبـاط الصف" هذه التى نحملها رتبا صورية، بل كانت تحمل كـل الجدية والمسئولية، فقد كان على كل باشجاويش أن يدبـر كل أمور سريته التى تضم حوالى ١٥٠ طالب، وهـو فى ذلك مسئول عن إصدار الأوامر والإشراف على أعمـال الضبط والربط وشئون الإعاشة، والأمور الإدارية المتعلقـة بالغذاء والحضور والغياب، وقواعد النظافة والسلوك، وهو يقوم بأعمال التفتيش وتوقيع الجــزاءات . . الخ، ويقـدم

تقارير التمام بذلك كله للضباط القائمين على قيادة المعسكر وبرامج المحاضرات والتدريب.

وما من شك فى أننا قد حصلنا فى مرحلتي الإعدادي والمتوسط على جانب كبير من الثقافة والخبرة العسكرية التى كان يتلقاها زملاؤنا فى الكلية الحربية النظامية، وكان مما يساعدنا على سرعة الاستيعاب الخلفية الثقافية المضافة بسبب انتمائنا للكليات الجامعية الأصلية.

وعندما انتهيت من مرحلة التدريب المتوسط هذه كنت أشعر بالفعل بأنني قد أصبحت ملما بدرجة كافية بشيء من مبادئ العلوم العسكرية فيما يتعلق بالأسلحة الصغيرة كالبندقية والمدفع الرشاش، مع إلمام أيضا بمبادئ علوم التخطيط والتكتيك والطبوغرافيا الخ..، فضلا عن تعميق رائع لقدراتي الذاتية على ممارسة القيادة، بما يستلزمه ذلك من تحمل المسئوليات وحسن التصرف واتخاذ القرار وتقدير الموقف، وقد ساعد على كل هذا بلا

شك ذلك الموقع القيادي الذى كنت أشغله. وكما يكون الحال بين رفاق السلاح فى الجيش، فقد تكونت لى بهذه المعسكرات أيضا عدة صداقات استمرت لأعوام طويلة مع زملاء من مختلف كليات الجامعات المصرية، وكان يطيب لهؤلاء الأصدقاء عندما يتقابلون معى أن يطلقوا على لقب " الباشجاويش" حتى بعد أن صرت طبيبا وأستاذا بكلية الطب.

ولقد عرضت بشيء من التفصيل قصة التدريب العسكري الجامعى هذه لأن هذا التدريب كان هو الخلفية التى مهدت الطريق وأدت للمرحلة التالية وهى الانخراط فى العمل القومى بالانضمام إلى كتائب الفدائيين فى حرب القنال فى أواخر عام ١٩٥١.

غير أنني أود قبل أن أترك قصة التدريب العسكري هذه الإشارة إلى أنه بعد انتهاء مرحلة العمل فى كتائب الفدائيين عام ١٩٥١ عدت لإتمام التدريب

العسكرى فى مرحلته النهائيـــة التخصصيـــة وقــد رأى المسئولون فى الجيش إلحاق طلاب الطب بسلاح الخدمـات الطبية، فعقد معسكر يضم طالبين فقط من كلية الطب هما أنا وزميلي محمد بحر (الذى صار كبير الأطباء الشـــرعيين فيما بعد)، وأتممنا تدريبنا فى شئون الخدمـــــات الطبيـــة العسكرية بكوبري القبة فى صيف عام ١٩٥٢ بعد قيـــام ثورة يوليو مباشرة، وحصلنا بعد ذلك على الشهادة حرف ب وأصبحنا ضباطا أطباء برتبة ملازم فى الخدمات الطبية.

"٢"

الاستعداد للعمل الفدائي ضد الإنجليز ــ الحركة القومية فى مصر والجامعة

فى عهد ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ كان سلوك الطلاب المصريين كما هو الحال دائما مرآة للشعور الوطني العام، فكما كانت البلاد كلها تغلى غضبا على المستعمر البريطانى الرابض فى منطقة قنال السويس والمسيطر على المقدرات السياسية فى البلاد بصورة غير مباشرة، كانت مشاعر الطلاب تغلى أيضا غضبا من الفساد السياسى والفساد الحزبى ودور الملك فى كل هذا التخبط والإظلام.

ولم تكن كليات الطب بأقل من باقى الكليات فورانا بالحركة الطلابية والانفعالات السياسية التى كانت

تواقة تحت تلك الظروف إلى أن تتخذ لنفسها طابعا قوميا تذوب فيه الخلافات بين الطلاب المنتمين إلى مختلف القيادات الحزبية، منضما إليهم أولئك الذين لا ينتمون لأى تيار حزبى، لينفعل الجميع معا بقضايا الوطن من منطلق قومى وطنى خالص .

وكنت فى الواقع من أولئك الطلاب الذين تعتصر نفوسهم آلام الوطن وتحرك عواطفهم أحلامه بالتحرر من الاستعمار ثم التقدم والازدهار، دون أى انتماء لحزب أو جماعة، فأنا بطبيعتي أكره الانتماء الحزبى لما يفرضه من قيود على فكر الإنسان، والتزامه بالولاء الإجباري لما قد يتعارض مع قيمه الذاتية، وخاصة بالنسبة لصورة أحزاب ذلك الزمن .

وعندما اشتدت حماسة المصريين، وتعالت صيحاتهم تنادى بالاستعداد للكفاح ضد المستعمر الإنجليزى بالقوة وبالسلاح، كانت حكومة الوفد برئاسة النحاس باشا قد

ألغت معاهدة ١٩٣٦، وفتحت الطريق أمـــام العواطـــف الملتهبة لتزداد تصميما على التخلص من وجود الإنجليز فى مصر، وأصبح النداء لحمل السلاح هو النغمة الســـائدة، وقامت بالجامعـــــات المصريـــة معســـكرات للتدريـــب العسكرى، كما أقيمت معسكرات أخرى فى مواقع مختلفة . وسيطر على أفراد الشعب شعور قوى بأن حربا تحريريـــة شعبية لابد أن تقوم لطرد المستعمرين إن عاجلا أو آجلا .

وكنا نسمع عن معسكرات تقام بجامعات القـاهرة وكتائب من الطلاب تذهب إلى منطقة القنال، وشهداء من الطلاب يسقطون وتعلن أسماؤهم ونقـــــرأ أخبـــارهم فى الصحف، واجتماعات صاخبة غاضبة تعقد فى كل يوم وفى كل مكان .

ولم تكن كلية طب الإسكندرية بعيدة عن هــــذا النشاط المحموم، فقد كان فيها مجموعة من الأســـاتذة ذوى النشاط القومى دون انتماءات حزبية واضحة، فـــأخذت

المؤتمرات السياسية تنعقد كل يوم ويشارك فيها الطلاب والأساتذة، ويختلط فيها طلاب الطب فى كثير من الأحيان بطلاب الكليات الأخرى .

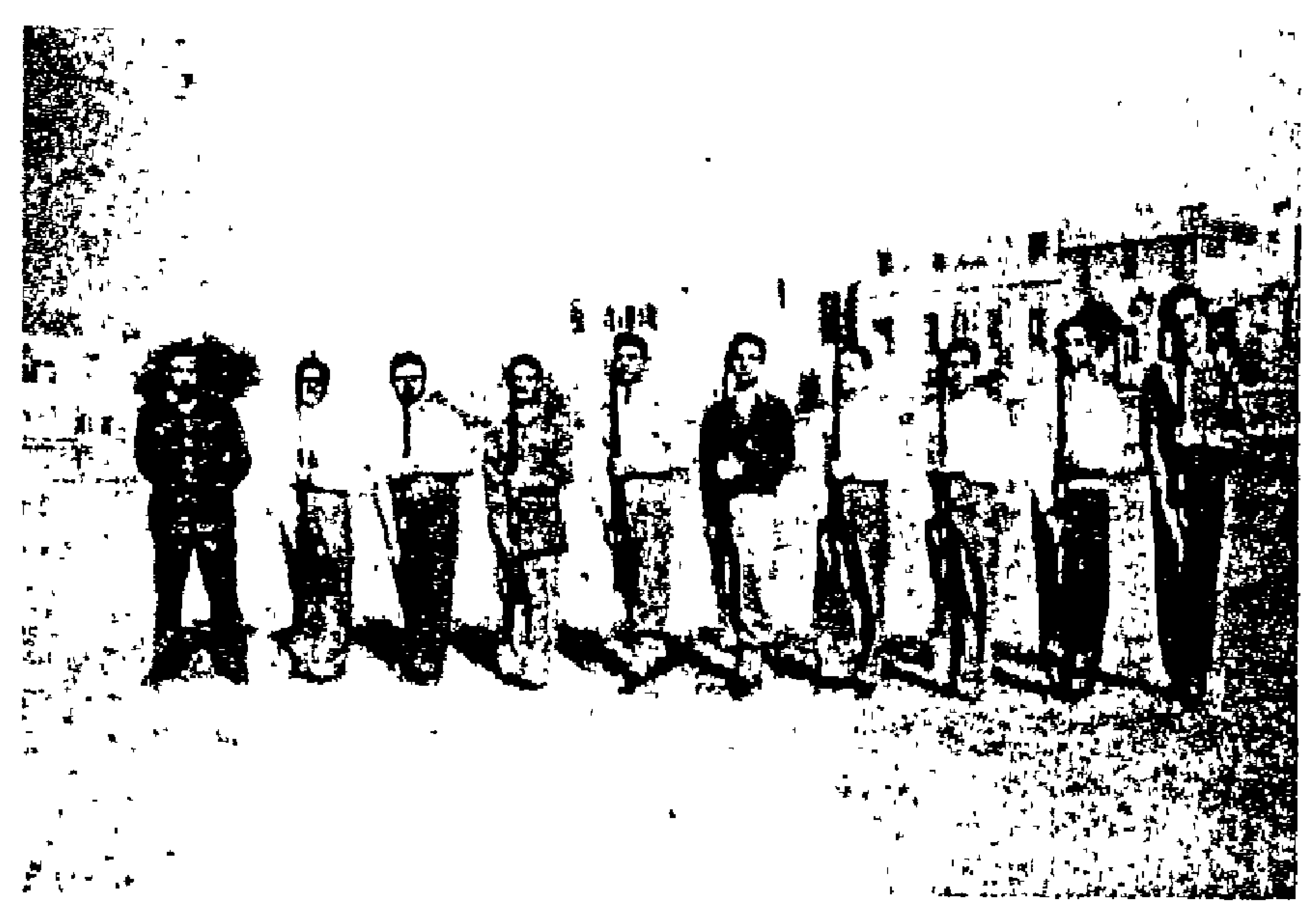
ولا أذكر كيف نشأت من هذه المؤتمرات الحماسية بعد ذلك حركة تدعو إلى تحويل الفكر الثائر إلى عمل فعال، فتقرر فى أحد هذه المؤتمرات بدء التدريب العسكرى فى كلية طب الإسكندرية لتدريب الجميع على حمل السلاح . وعندما تعود بى الذاكرة إلى ذلك الوقت أراني أسائل نفسى كيف كنا نفكر فى هذه الأوقات، فما معنى التدريب العسكرى لكل أفراد الشعب إلا إذا كان المتوقع أن يعود الإنجليز الذين كانوا وقتئذ يتمركزون بقواقم فى مدن القنال فقط إلى احتلال القاهرة والإسكندرية فيندفع الناس جميعا عندئذ صغارهم وكبارهم رجالهم ونساؤهم لمقاومتهم وحربهم فى الشوارع والطرقات، ربما كان هذا الاحتمال واردا بالفعل أما

الاحتمال المنطقي بدرجة أكبر فكان يستلزم إعداد كـوادر من المقاتلين تذهب إلى الإنجليز لمحاربتهم فى موقع احتلالهـم بمنطقة القنال، وقد كان ذلك يستدعى تدريبـــات أكـثر عمقا لأفراد أقل عددا .

على أية حال تقرر فى أحد تلـــك المؤتمـرات المفعمة بالمشاعر الوطنية العارمة أن تصبح كليـــة الطـب مركزا شاملا للتدريب العسكرى، وأن يكون التدريـــب للجميع، وأن تتوقف الدراسة ساعتين يوميـــا لينخـرط الجميع، الطلاب والطالبات والأساتذة، فى ذلك التدريب.

الصور





التدريب العسكرى الجامعى فى كلية الطب



مع زملاء الدراسة فى اعدادى كلية الطب أثناء
التدريب العسكرى الجامعى ١٩٨٤

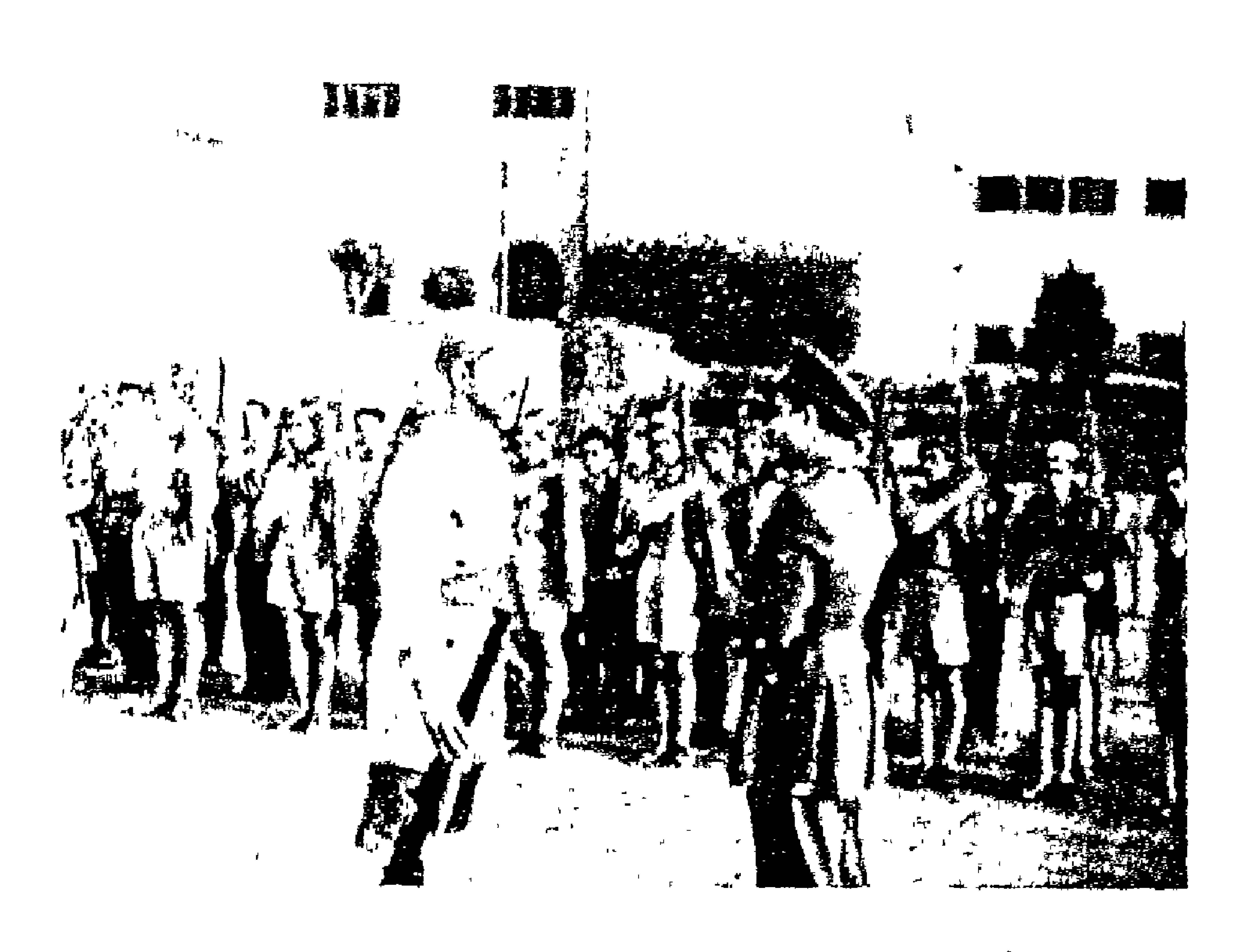






معسكر المرحلة الأولى فى الهايكستب

لإعداد ضباط الاحتياط ١٩٤٨

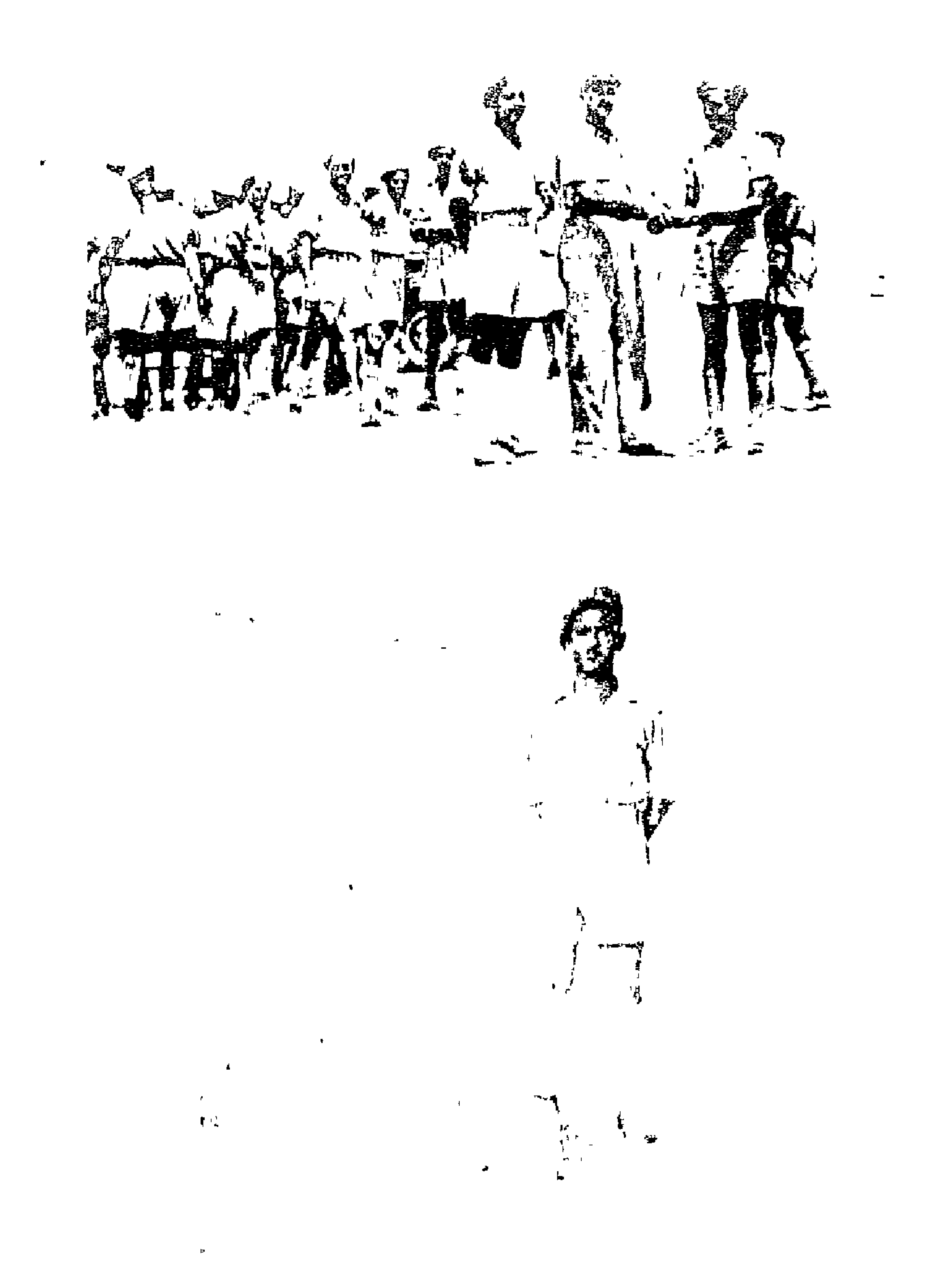


مع أحد ضباط التدريب العسكري الجامعي(اليوزباشي) خالد فوزى
وكان أحد أبطال حرب فلسطين - فى معسكر الهايكستب ١٩٤٨





مع زملاء السلاح فى معسكر الدخيلة



باشجاويش السرية الأولى فى معسكر المرحلة المتوسطة

بالدخيلة لإعداد ضباط الإحتياط ١٩٥١





وعندما حان وقت الكفاح

أخذ الشباب فى كل جامعات مصر

بتدريب استعداداً لمعركة التحرير



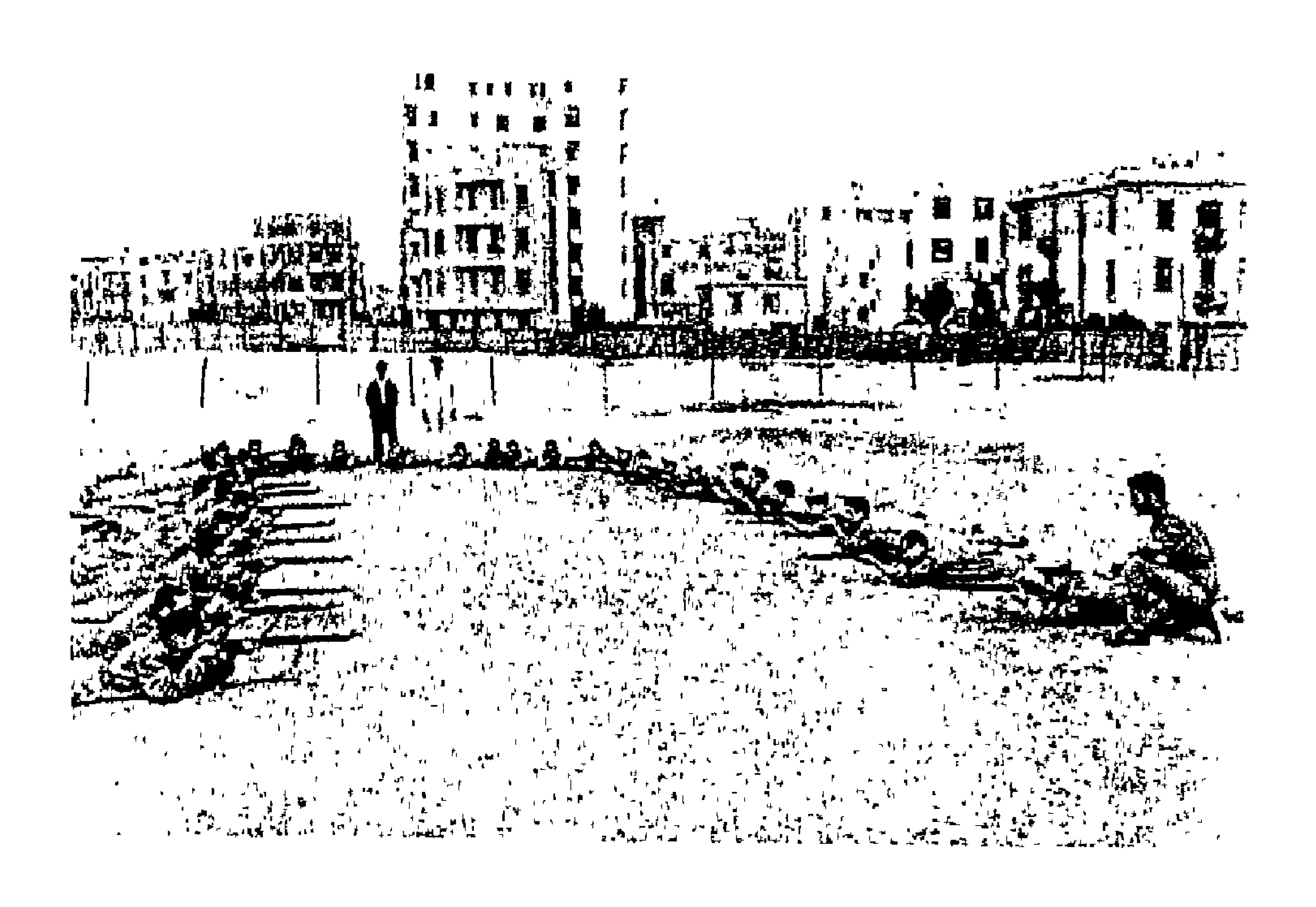


وشاركت الفتيات أيضًا فى التدريب استعداداً للمعركة



وأخذت الصحف تتابع حركة الاستعداد

في الجامعات لمعارك التحرير



وأخذ المؤلف مسئولية تدريب الأساتذة
والطلاب فى كلية طب الإسكندرية



وبدأت كتائب التحرير تتشكل من الشباب

الذين تدربوا على العمل ضد قوات الإحتلال


مصر كلها تتأهب لمعركة التحرير

نواب الأمة يتشاورون

وأخذت طوائف الشعب كلها تستعد للكفاح المسلح ضد الإنجليز ولم تتخلف المنظمات والأحزاب والنواب ورجال السياسة بل والحكومة وضباط الجيش الوطنيون



نتائج الكفاح المسلح تؤتى ثمارها

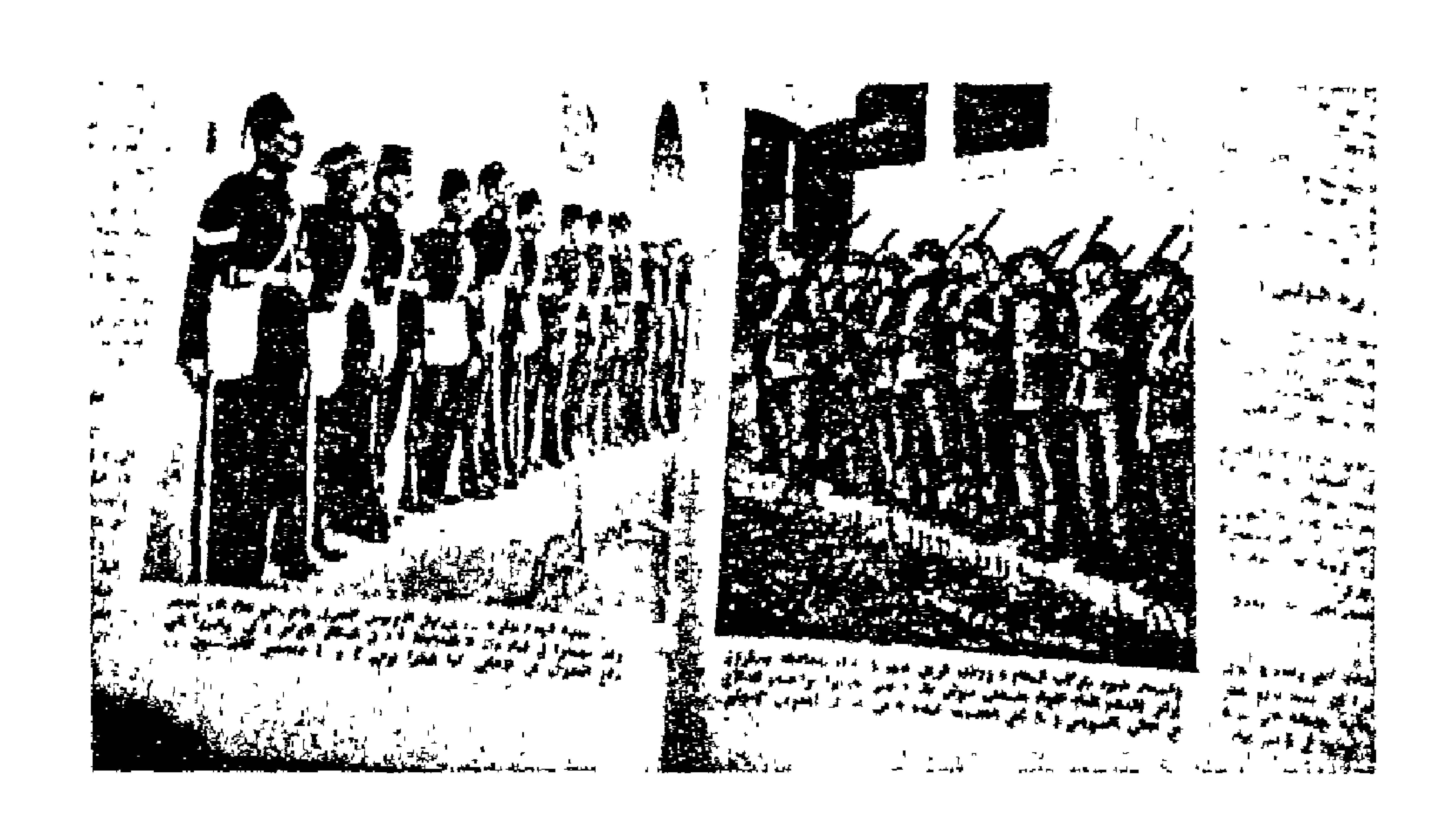


كتائب التحرير تبدأ جولتها الأولى

أعمال الفدائيين تقض مضاجع الإنجليز فى القنال



ولم يملك الإنجليز رداً على أعمال الفدائيين
إلا بمهاجمة الأهالى العزل من السلاح وتدمير
قرية كفر عبده التى دخل اسمها تاريخ
المقاومة المصرية ضد الإنجليز!



وأخذ أبطال البوليس المصرى يؤدون دورهم
أيضًا فى مقاومة الإحتلال وبلغوا ذروة البطولة
فى الدفاع عن مبنى المحافظة فى الإسماعيلية
ببسالة وشرف

فى هذا الجو الحماسي الوطني الرائـــع، والـــذى لم يكن يخضع لمنطـــق ســـوى منطـــق التفـــاني فى حـــب الوطن، حتى ولو أملى ذلك الحب العـــارم كثـــيرا مـــن التصرفات التى قد لا يبررها ميزان العقـــل وحـــده . فى هذا الجو الفريد والمثير وجـــدت نفســـي فجـــأة ودون أى تخطيط من جانبي – الزعيم العسكرى لهـــذا العمـــل الجسيم، فى الوقت الذى لم أكن فيه فى الأصـــل زعيمـــا طلابيا سياسيا على أى حال من الأحـــوال .

وقد جاءت هذه الزعامة العسكرية بكل بســـاطة من كوني أحد أفراد قلائل من بين طلاب كليـــة الطـــب وأساتذته الملمين ببعض مبادئ المعارف العســـكرية عـــن طريق اشتراكي السابق بمعسكرات الضباط الاحتيـــاط، وأستطيع التعامل مع البنادق، وكنت بحكم أقدميتي بـــين هؤلاء القلائل وموضعي القيادي فيهم فى الموقع الأول مـــن المسئولية، وقد غمرني إحساس عارم بالمســـئولية، كـــانت تضخمه بلا شك روح الشباب واندفاعاته، فأخذت أعـــد

نفسى بالفعل لهذه القيادة كما لو كنت وحدى المسئول عن إخراج الإنجليز من مصر !!.

وبشيء من الفكر والتعقل مع كثير من الاندفاع والحماس تبين لى وقتئذ أن الحرب القادمة لابد أن تكون أقرب إلى الكفاح الشعبي على صورة حرب العصابات، ووجدت ضالتي فى الحصول على مزيد من المعرفة عن تكتيكات هذا النوع من الكفاح فى قراءة الكتب المتعلقة بحرب العصابات، وأذكر منها كتابا أصدره فى هذا الوقت الضابط أحمد حمروش الذى لعب دورا بارزا بعد ذلك فى الثورة وأصبح فيما بعد وإلى الوقت الحاضر أحد كبار الكتاب الصحفيين . وأخذت أدرب نفسى على ما يلزم لذلك وأذكر مثلا أنه كان لنا زميل هو الطالب جمال شحاته- الذى كان يمتلك موتوسيكلا (سيد كار ثلاثي العجلات) يحضر به إلى الكلية بسبب إصابته بشلل الأطفال فرأيت أن أؤهل نفسى بتعلم قيادة الموتوسيكلات

فمن يدرى فقد يفيد ذلك فى المستقبل، فما كان من زميلي إلا أن أخذ يعلمني قيادة الموتوسيكل الذى يملكه !! .

ولا أذكر بالضبط من الذى أصدر قرارا شعبيا بتعييني قائدا لعمليات التدريب العسكرى خلال فترة الساعتين يوميا فى كلية طب الإسكندرية .

ولكن هكذا وجدت نفسي أمام هذه المسئولية الضخمة الواقعة على كتف طالب فى السنة الثالثة بالكلية !! وكان الجو غريبا جدا - كلية الطب بأكملها تتوقف يوميا عن الدراسة من الساعة العاشرة صباحا إلى الثانية عشرة ظهرا، ويتجمع الطلاب والأساتذة فى حلقات صغيرة للتدريب على استخدام البندقية التقليدية المتاحة فى ذلك الوقت فى مخازن التدريب العسكرى الجامعي وهى البندقية الإنجليزية الصنع ماركة لى انفليد المتروع منها إبرة ضرب النار، وهى البندقية التى أحببتها وعشت بها و معها منذ أن كنت طالبا بالمدرسة الثانوية، وتدربت على إطلاقها

فى معسكرات الضباط الاحتياطيين، كما تدربت على المدفع الرشاش الإنجليزي ماركة "برين" .

ولم تبخل إدارة التدريب العسكرى الجامعى، فأتاحت هذه البنادق للتدريب العسكرى الشعبي، ولم يبخل ضباط الجيش المصرى المتصلين ببعض أساتذة الكلية سواء منهم ضباط التدريب العسكرى الجامعي أو من كانوا خارج نطاق التدريب الجامعى بالمساعدة بالخبرة والتوجيه لأعمال التدريب .

كانت رغبة الجميع فى أن يصبحوا قادرين على حمل السلاح بصرف النظر عن متى وأين ستكون الضرورة لاستخدام هذا السلاح ضد المستعمر الإنجليزي الذى لم يكن هناك على الإطلاق هدف مطلوب إلا هو، وهو وحده .

كنت أقود عمليات التدريب، وألقى دروسا على المتدربين فى المبادئ التى أعرف جانبا منها، وعندما تنتهي فترة التدريب فى الساعة الثانية عشرة ظهرا- كان كل

شئ فى كلية الطب يعود مرة أخرى إلى أصلـــه، ويعـود الطالب " الجنرال" الذى هو أنا - إلى حجمـــه الطبيعـي طالبا منتظما فى السنة الثالثة بعد أن كان الآمـــر النـاهي خلال ساعتي التدريب العسكرى .

والعجيب حقا أننى كنت أجد من أساتذتي وهـــم منخرطين فى حلقات التدريب العســكرى كـل طاعـة واحترام لأوامري وتعليماتى، ثم تنقلب الصورة بعد ذلـك لأعطيهم كل المحبة والتقدير والاحترام عند انتهاء فـــترة التدريب ...

ولا أظن أن موقفا مثل هذا حدث فى أى جامعـة من جامعات مصر، وكلما تذكرت تلـك الأحـداث لا أستطيع أن أتصور كيف كانت هذه التصرفـات مُـبررة بميزان العقل وحده، أو كيف كانت تتم بذلـك السـمو الأخلاقي، وتلك القيم الرفيعة . والحقيقة المؤكدة هـى أن الشعور القومى الفياض هو وحده الذى كان يحكم بمنطقـه كل شئ فى تلك التصرفات.

وقد حكى لى أستاذي الراحل الكـــريم الأســـتاذ الدكتور أحمد السيد درويش ولزملائي فى مناسبة خاصـــة بعد عدة سنوات، كيف أن عميد الكلية وقتذاك وكـــان أستاذنا العظيم الدكتور محمود صلاح الدين أنـــه ســـأل الأستاذ درويش وقتها : من هذا الشاب التلميذ فى ســـنة ثالثة الذى تعملون منه رئيسا للكلية ساعتين كـــل يـــوم، والأستاذ درويش يقول له " اطمئن يا سيادة العميد فـــهو ولد ممتاز ويعرف حدوده تماما ويؤدى دوره ولا يتجـــاوزه وهو على خلق، ومتفوق جدا أيضا فى دراسته".

"٣"

من التدريب إلى الميدان

بلغت المواجهة بين الشعب المصرى وبين الإنجليز مرحلتها الدقيقة، وأخذت الصحف ووسائل الإعلام، فضلا عما يتناقله الناس فى مجالسهم، تنقل أخبار الشباب الذين ينطلقون من جامعات مصر لينخرطوا فى كتائب التحرير ويذهبون إلى منطقة القنال لمحاربة الإنجليز هناك .

وأخذت أخبار الشهداء من الطلاب وغير الطلاب تلهب الحماس بعنف، وأخبار الصحف تمتلئ بتحرشات جنود الاحتلال بالمواطنين فى مدن القنال وبجنود البوليس المصرى، وأعمال الفدائيين الذين يقومون بنسف خطوط التموين ومحطات البنزين التى تخدم القوات البريطانية، والعمال المصريين الذين ينقطعون عن العمل فى معسكرات الإنجليز، والمتعهدين الذين يتوقفون عن التعامل معهم ... فمصر كلها تتأهب لمعركة تحرير شرسة،

والشهداء يتساقطون - مسلمين ومسيحيين والصحف تنشر أسماء نبيل منصور، منير ميخائيل، محمد اللبان .... الإنجليز يقطعون الطرق الموصلة إلى مدن القنال، ويقيمون مناطق للتفتيش على طول الطرق، يرابط فيها مئات الجنود، يفتشون الداخلين والخارجين ويصادرون الأسلحة.

والمنظمات الحزبية والتجمعات السياسية كلها تعد نفسها- كل بوسائله الخاصة للمشاركة فى كتائب التحرير: الحزب الوطنى- الأخوان المسلمون- الحزب الاشتراكي - والمنظمات النقابية العمالية، أما حزب الوفد فقد كان بالحكومة والحكومة ذاتها تقف وراء حركات التحرير تدعمها فى الخفاء أكثر مما تفعل فى العلن، وضباط الجيش يساهمون بكل خبراتهم وإمكانياتهم فى السر .

بعض الصحف تنادى بتنظيم العمل الشعبى مع الحكومى وبعضها كان قد تنبه إلى ما يفرضه العقل من ضرورة التنسيق بين أعمال كتائب التحرير وخلق قيادة موحدة و الاعتماد على دعائم مالية ثابتة .

. ثم مظاهرات سياسية يشارك فيها زعماء الأحزاب، حتى المتنافرون، حيث يظهر النحاس وعلى ماهر جنبا إلى جنب مع مكرم عبيد وحسين هيكل وغيرهم من الزعماء .

الإنجليز يستفزون المواطنين ورجال الشرطة كل يوم، وتبلغ قمة الجريمة عندما تقوم القوات البريطانية بعد ذلك بنسف قرية كفر عبده ليدخل اسم هذا الكفر سجل التاريخ المجيد لكفاح المصريين ضد الاستعمار الإنجليزى .

من خلال هذا الجو الملتهب بالأحداث فى أواخر عام ١٩٥١ انعقد فى الكلية الاجتماع الذى لم يكن كغيره من الإجتماعات، فسيطرت عليه فكرة ضرورة بدء العمل والكف عن الكلام والهتافات، بدء الجهاد الحقيقي فى سبيل الوطن وبدء المشاركة فى الحرب القائمة ضد المستعمر الإنجليزى الذى يدنس أرض الوطن .

وكان معنى بدء العمل بالطبع هو تحويل عملية التدريب على السلاح إلى حمل السلاح وتوجيهه بالفعل

إلى الغاصبين، والانخراط فى صفوف المحاربين، وعلى من لا تمكنه الظروف من ذلك أن يقوم على الأقل بدعم المحاربين بالسلاح وبالمال ومعدات القتال .

ولا أنسى ما حييت منظر الطلاب والأساتذة وهم يجودون بالقليل الذى كان فى جيوبهم من مال، فى حملة التبرعات التى بدأت فى المدرج الكبير الذى كنا نتلقى فيه فى الأصل محاضراتنا، ولا منظر زميلاتنا الطالبات وهن يخلعن حليهن الذهبية ليلقين بها فى صندوق التبرعات، ولا أستطيع أن أذكر من الأسماء بعد مرور حوالى نصف قرن على ذلك اليوم الخالد إلا اسم زميلتنا ناهد كامل (وهى الآن الأستاذة الدكتورة ناهد كامل رئيسة قسم طب المجتمع) وكانت من طالبات الدفعة التى تلي دفعتنا، وهى تبدأ هذا التصرف الحماسى النبيل بالتبرع بقطعة ذهبية من حليها ثم تتبعها طالبات أخريات .

لم تمر على ذلك المؤتمر إلا أيام حتى أصبح الشغل الشاغل للجميع هو الإعداد لإرسال المتطوعين من شباب الكلية للانخراط فى كتائب التحرير بالقنال .

وكانت كلية الطب بوجه خاص فى وضع مميز عن باقى الكليات، وهو أن طلبتها يمكن أن يكونوا مسعفين يعالجون الجرحى أو يحملون السلاح للقتال الفعلي أو يقومون بكلا الدورين معا .

ولا أعرف كيف سيطرت على فكرى سيطرة كاملة أننى وحدى المكلف بتولى هذه المهمة، وأن موقعي الطبيعي هو قيادة الوحدة المقاتلة التى يجب أن تترك الدراسة على الفور، وتحمل السلاح وتنضم إلى كتائب الفدائيين، وإلا فكيف أكون قائدا لزملائى الطلاب فى أعمال التدريب على السلاح ثم لا أكون بعد ذلك فى نفس الموقع عندما يقتضي الأمر استخدام ذلك السلاح ..

.. ولم يوجد فى الكلية فى هذا الوقت من يستطيع معارضة حقى فى هذا الموقع القيادى أو منافستى عليه، وسرعان ما

وجدت نفسى أتوجه إلى معسكرات مصطفى كامل لمقابلة بعض الضباط الأطباء بتوجيه من أساتذتنا وبترتيبات منهم، وأخذ هؤلاء الضباط الأطباء يعدون لنا حقائب ضخمة مليئة بالمعدات الطبية الصالحة للاستخدام فى الميدان من ضمادات مضغوطة ومن أدوية وحقن بما فى ذلك المورفين، وكانت كلها من مخزن الجيش المصرى ومن الأنواع التى يستخدمها الجيش البريطانى . وتكونت فى أول الأمر مجموعة من ستة طلاب بقيادتى هم الذين أظهروا الرغبة فى أن يكونوا الفوج الأول من المتطوعين من كلية طب الإسكندرية، وأخذنا نتردد على معسكر مصطفى كامل لنتلقى تدريبات خاصة على الإسعافات الميدانية .

وانتقلنا بعد ذلك إلى الاستعداد بالتسليح فحصلنا أيضا بمساعدة الأساتذة وضباط الجيش على ثلاثة مسدسات أحدها ضخم من صناعة ألمانية واثنين ماركة برتا الإيطالية . ولا أذكر أننا قمنا بالتدريب على إطلاق هذه المسدسات قبل مغادرتنا الإسكندرية ...!!!

وعندما تحدد يوم السفر كنا خمسة أفراد بعـــد أن تخلف واحد لم يكن جادا على الإطلاق، وكان الخمسة هم أنا وزملائي مصطفى أبو العينين وشوقي البلتاجى ومحمـود البيلر وعزيز عبد العليم ومدحت عبد الــرازق ...كــان على كل منا – بعد أن استكملت الترتيبات لســفرنا– أن يرتب أموره مع أسرته حتى يحصل على موافقتهم أو علـى الأقل عدم وقوفهم ضده لمنعه من السفر، وهو الأمر الذى كان متوقعا من كل أسرة بطبيعة الحال .

وكان تحديد أفراد المجموعة الفدائية مرتبطا فقـــط بالرغبة الشخصية فى التطوع، ولم يكن بين المتطوعين مـــن لهم خبرة عسكرية بحكم اندماجهم فى معسكرات ضبـــاط الاحتياط إلا اثنان فقـــط كنت أنا بالطبع أحدهما .

وقبل يومين من الموعد المحـــدد للســـفر تســـرب الخبر إلى أسرة واحد من أفراد الجماعة، فـــاتخذت منـــه موقفا قاطعا، لم يستطع هـــو أمامـــه أى مقاومـــة، فقـــد

أبلغنا أن والده قد أقسم أمامه يمين الطــلاق بــأن يمنعــه من السفر بأى وســيلة .

أما أنا شخصيا فلا أعلم كيف استطعت بســهولة بالغة أن ألغى أى معارضة لسفرى من جانب أسرتى قبــل أن تصل إلى تصرفٍ عملى ضد سفرى، وربما قد ســاعد على ذلك أن والدى رحمه الله كان يتعامل معــى دائمــا باعتباري موضع الثقة الكبيرة فى حكمة تصرفاتى فضلا عن حماسته الوطنية الشديدة . أما والدتى رحمــها الله فقــد كانت إلى جانب ذلك فى حاجــة إلى أن تخدّرهــا كذبــة مناسبة- وإن كانت تحمل بعــض الصــدق فى طياتهــا- ومؤداها أننا سوف نكون بعثة من طلاب كليــة الطــب ذاهبين لإسعاف الجرحى فقط- دون حمــل أى ســلاح وخلف الخطوط فى مدينة الإسماعيلية ولن نكون فى قلــب المعارك أبدا - وهو بالطبع ما لم يكن فى نيتنا حقيقة .

"٤"

من الإسكندرية إلى الإسماعيلية

عندما تقرر يوم السفر كنا ثلاثة أفراد : عزيز عبد العليم (الذى كان يسبقنا بدفعة فهو طالب فى السنة الرابعة) ومصطفى أبو العينين وأنا من السنة الثالثة، وكان على شوقى البلتاجي ومدحت عبد الرازق أن يلحقا بنا بعد بضعة أيام. وكانت المجموعة المكونة من الطلاب الثلاثة مزودين بكميات لا بأس بها من المعدات الطبية وأدوات الإسعاف، وبثلاثة مسدسات و بقيادتي، فى طريقها إلى منطقة قنال السويس.

لم يكن فى ذهننا فى ذلك الوقت إلا أننا ذاهبون لقتال الإنجليز فى أرض منطقة القنال، أما أين على وجه التحديد ومع من من كتائب الفدائيين،فلم يكن لدينا أى خطة محددة، فقط لدينا معلومات مشوشة عن كتائب

طلابية من جامعة القـــاهرة، وعـــن جماعـــات الأخـــوان المسلمين، وكانت فى هذا الوقت جماعة شـــرعية، وكـــان أفرادها بوجه خاص قد اكتسبوا خبرات عسكرية كبـــيرة من خلال مشاركتهم فى حرب فلسطين وقد أبلوا فيـــــها بلاءً حسنا .

ولكن أين كانت هي مراكـــز القيـــادات الـــتى نستطيع أن نعرض عليها خدماتنا وأن نطلب الانضمـام إلى كتائبها ؟ الواقع أننا لم نكن ندرى عن كل ذلـــك شـــيئا محددا، وكان علينا أن نذهب إلى هناك أولا ثم نبحث عـــن ذلك .

وسافرنا نحن الثلاثة من محطة سيدى جابر بالقطـــار إلى بنها ومنها بقطار آخر إلى الزقازيق حيث كان علينـــا أن نتوقف هناك لاستطلاع الأخبار وترتيب الخطـــط، وربمـــا نستكمل فيها ما نحتاج إليه من سلاح أو مهمات .

ونزلنا فى أحد الفنادق المتواضعة بالمدينة لنبدأ بالتحري والبحث عن مقر قيادات الكتائب المقاتلة التى كنا نسمع عن تمركزها فى الشرقية .

وقد حدث فى الليلة التالية ليوم وصولنا إلى الزقازيق حادث كاد أن يؤدى بنا إلى كارثة، فقد كنت عند باب الفندق الخارجى عندما سمعت دوى طلقة رصاص تصدر من داخل الفندق، وانتابني شعور قوى بأن هذا الصوت صادر من غرفتنا فهرعت للاطمئنان على زميلى مصطفى أبو العينين وعزيز عبد العليم، وصح بالفعل ما توقعته ووجدهما فى حالة بائسة من الرعب لأن طلقة طائشة انطلقت بالفعل من مسدس مصطفى وكادت أن تؤدى بحياة عزيز لولا لطف الله .

ولم يكن هذا غريبا من شباب خرج بدافع الحماس الوطنى وهو يحمل مسدسات، وهى أصلا لم تكن من

أدواقم، ولم يتدربوا على صيانتها وتأمينها قبل مغـــادرتهم الإسكندرية .

وعندما أتأمل فى ضوء الظروف التى نعيشها اليـوم للمقارنة بين ما كان وما هو كـــائن لاســـتخلاص العـــبر والدروس، يتملكني العجب لموقفي أنا وزملائي. ففى هـــذا الوقت الذى مر عليه ثمانية وأربعون عام كان هناك ثلاثـــة شبان يحملون سلاحا بدون ترخيص، ويسافرون خفية حتى لا تكشفهم عيون السلطات والإنجليز وجواسيسهم، وكان من المؤكد أن الإنجليز يســـمون مثـــل هـــؤلاء الشـــبان بالإرهابيين : وأعوذ بالله من مجرد المقارنة بين شبان هـــــذا الزمان الذين حملوا السلاح غير المرخـــص لقتـــال عـــدو يستعمر بلادهم، وهم يعلمون بأن الشعب المصرى كلـــه يقف من ورائهم يشد أزرهم، والسلطة الحكومية القائمـــة فى ذلك الوقت ليست فقط تغمض العين عـــن مخالفتـــهم الظاهرة لقانون حمل السلاح بل إنها تؤيدهـــم فى الســـر

وتدعمهم، وكذلك يفعل الوطنيون من رجال الجيش- مجرد المقارنة مع شباب آخر فى الزمن المعاصر حمل السلاح أيضا ربما بنفس العفوية والحماسة ليوجهه بعد ذلك بسذاجة وجهل إلى أفراد من أهل وطنه أو من السائحين الأجانب تحت وهم أنه يجاهد فى سبيل قضية أو لنصرة الإسلام . وإذا كان الخط الوحيد الذى يجمع بين هؤلاء وأولئك هو الاقتناع (الصحيح فى حالتنا فى الزمن الماضى والباطل فى الحالة الأخرى فى الزمن المعاصر) بأن القضية التى يُحمل لها السلاح هى قضية تستحق التضحية والجهاد حقا .

ولقد كان من الممكن جدا أن تتلقف الشباب المتحمس والراغب فى التضحية بالدم والروح مع قلة الخبرة، وحيث كانت الأهداف واضحة أمامنا ولكن رؤية الطريق والوسائل كانت مشوشة وغير مرسومة بدقة،كان من الممكن أن تتلقفنا قُوى تسئ استخدام روح التضحية

النبيلة، ولكن الحمد لله أن الظروف السائدة فى هذه الأيام الخالدة لم تكن تسمح على الإطلاق بمثل هذه الانحرافات .

بعد قضاء أيام قليلة فى الزقازيق قمنا خلالها بجمع بعض المعلومات التى قد تساعدنا على استكشاف الطريق إلى النقطة التى يجب أن نبدأ عندها، قررنا السفر إلى الإسماعيلية بالأتوبيس، وحملنا معنا حقائبنا ومعداتنا .

وعندما وصل بنا الأتوبيس إلى مدخل الإسماعيلية كان الوقت يقترب من المغرب. وتوقف الأتوبيس فى قرية "نفيشة" فى أطراف المدينة حيث أقام الإنجليز نقطة تفتيش هدفها الأول البحث عن الفدائيين. ولم نكن فى الواقع قد عملنا حسابات دقيقة لهذا الاحتمال، احتمال أن نُستوقف ونسأل عن شخصياتنا وأن يتم تفتشينا والكشف عما معنا من معدات وسلاح، والباقي بالطبع سيكون أمرا واضحا ومعروفا وهو اعتقالنا.

وكان يوم السفر من الزقازيق للإسماعيلية يليه على وجه التحديد ليلة الكريسماس، وعندما توقف الأوتوبيس فى نقطة التفتيش صعد إليه جندى إنجليزى مدجج بالسلاح وموجها سلاحه نحو السائق يأمره بالنزول من الأوتوبيس هو والركاب، وأخذ واحد من الركاب يحاول استدراج الجندى الإنجليزى وشغله بشيء من المزاح قائلا " ميرى كريسماس جونى " ولكن الإنجليزى المتجهم الوجه رد بجفاء :

" شت آب" Shut up كريسماس زفت "، ثم فجأة انقلب الموقف وقرر الإنجليز إعادة الأوتوبيس من حيث أتى، فقد كانت هناك على ما يبدو تعليمات لديهم بعدم السماح بدخول وسائل المواصلات العامة إلى مدينة الإسماعيلية عند حلول الظلام، وصاح أحد الجنود بالإنجليزية Back To Zagazig – وعندما تباطأ السائق متعللا بأن بالأتوبيس سيدات وأطفال ولابد من وصولهم

لأسرهم بالإسماعيلية عندئذ شرعت الأسلحة على الفور وكاد سونكي البندقية أن ينغرز فى جنب السائق، الذى لم يكن يبدو عليه مع ذلك أى ذعر، ولكنه لم يجد مفرا من إعادة اتجاه الأوتوبيس نحو طريق العودة إما إلى الزقازيق وإما للتوقف فى قرية "نفيشة" حتى صباح اليوم التالى ليمكن السماح له بدخول الإسماعيلية .

وفى قرية "نفيشة" ظهرت على الفور شهامة المصريين، فجاء عمدة القرية، ودعا ركاب الأوتوبيس إلى النزول فى داره للمبيت بها حتى الصباح، وأعدّ لنا ما يلزم من طعام العشاء . وكان من الصعب فى تلك الليلة أن يغمض لنا جفن فتسللنا نتلصص خارج الدار لنسمع أخبار الفدائيين الذين كنا نعلم تماما أنهم يحيطون بهذا المكان حيث تنتشر معسكرات الإنجليز، وقد كنا نسمع الكثير عن غارات الفدائيين على تلك المعسكرات تحت جنح

الظلام لسرقة المعدات العسكرية والأسلحة وقتل الجنود البريطانيين إذا أمكن، وإشعال الحرائق .

فى الصباح ركبنا الأوتوبيس وتفرقنا بين جموع الراكبين، وتمت المعجزة، فقد مررنا على نقطة تفتيش نفيشة بسلام وسمحوا لنا بدخول الإسماعيلية دون أن يكتشف أمرنا أو نتعرض لأى مخاطر .

وأذكر وأنا فى الأوتوبيس أننى كنت شارد الذهن ونحن نمر بجوار أحد معسكرات الإنجليز الواسعة، ولابد أن ملامحى كانت تشي بما يجول بخاطرى من عداء لسكانها من الإنجليز. وصحوت من تأملاتي على صوت رجل عجوز يخاطبني قائلا " يللا إنزل ورينا الهمة " فقد استطاع الرجل بفراسته أن يكشفني، وحمدت الله على أن تلك الفراسة التى أبداها ذلك المصرى المسالم لم تتوفر فى جنود التفتيش الإنجليز عند "نفيشة" وإلا كان مصيرنا القبض علينا على الفور والضياع .

"٥"

الإسماعيلية - القنطرة
تل بسطة

ودخلنا مدينة الإسماعيلية، ومرة أخرى لم يكن لنا وجهة محددة نعرف الطريق إليها، كل ما كان يسيطر على عقولنا هو الرغبة العارمة فى أن نلقى بأنفسنا فى خضم الهدير الثائر من العمل الفدائي الذى يستهدف إقلاق الإنجليز لدفعهم للخروج من بلادنا وتحرير الوطن، أما أن يكون تحقيق ذلك مع أى جيش من الجيوش، وتحت أى لواء أو قيادة فهذا ما لم يكن يهمنا على الإطلاق . فقد كان الإيمان راسخا أن جميع المصريين قد توحدوا نحو هدف واحد واضح وأننا جميعا أصحاب قضية واحدة، وأننا نحن الشبان الثلاثة من كلية الطب لنا رؤية إضافية لأننا أصحاب خبرة طبية نريد أن نضعها فى الخط الأمامي

إصرارنا على أن نكون فى الصف الأول، حتى إذا أصيب أحد الفدائيين أثناء المعارك فإنه يجدنا على الفور إلى جواره يد واحدة من أيدينا تضمد جراحه، واليد الأخرى تطلق معه السلاح على الإنجليز، وحتى لا تذهب روح أى فدائى مقاتل إلى عالم الشهداء بسبب تأخر الإسعاف اللازم فى الوقت المناسب والمكان المناسب- هكذا كانت عقيدتنا .

والإسماعيلية منذ نشأتها كانت منقسمة إلى حي وطني يطلق عليه " الحى العربي " ويعيش فيه المواطنون المصريون، و حي آخر يطلق عليه " الحى الإفرنجي" وسكانه أغلبهم من الأجانب، كما كان يضم مكاتب الجيش البريطانى وإدارته قبل أن يسحبها الإنجليز إلى داخل المعسكرات .

ولم يكن هناك فى الإسماعيلية بالطبع مركز قيادة معروف لكتائب التحرير، وكيف يمكن أن يكون ذلك، وقد كان أحرى به إن وجد أن ينسفه الإنجليز على الفور .

وكان الحى العربى يموج بالأخبار وأحاديث الناس عن الشهداء الذين يسقطون كل يوم، والمستشفى الحكومى يعج بالمصابين فى حوادث الاصطدام اليومية بين المواطنين وعساكر البوليس المصرى من جهة وبين جنود الاحتلال من جهة أخرى .

ومع أن مواقع القيادة للمنظمات الجادة فى الكفاح ضد الإنجليز كانت سرية إلى درجة كبيرة، فقد عرفنا بعد بضعة أيام طريقنا إلى مقابلة أحد قادة العمل الفدائى، وكان اسمه الشيخ فرغل من زعماء الإخوان المسلمين، وكان أمر هذا الرجل يقض بالفعل مضاجع القيادة البريطانية حتى أنهم كانوا يتناولونه بالتهديد المستمر فى إذاعة خاصة كانت تبثها تلك القيادة على الأهالي.

وقد كان علينا أن نقترب ونتحالف مع أى جهة من الجهات لتسمح لنا بأن نؤدى الدور الذى رسمناه لأنفسنا كوحدة طبية فدائية مقاتلة ومجهزة تجهيزا جيدا

بالمعدات اللازمة للإسعاف الميداني، ولكن المشكلة التى كانت أمامنا دائما هو انه لم يكن لنا فى الواقع انتماء أصلا لأى تنظيم سياسى أو حزبي يسهل لنا الطريق إلى ذلك الانضمام، وكان كل فريق من فرق الفدائيين للأسف يعمل بأسلوبه الخاص منعزلا دون تنسيق جاد مع الآخرين، بل وربما - ولهم الحق فى ذلك- كان كل منهم يتوجس حذرا من أن يندس عليه من قد يكون عميلا أو من جواسيس الإنجليز .

ولقد عانينا بسبب ذلك أياما كثيرة من الشعور بالإحباط والتمزق بسبب الرغبة العارمة فى أن نبدأ العمل الذى تركنا له دراستنا مضحين بمستقبلنا. ولكن كان علينا أن ننتظر طويلا حتى نجتاز اختبارات الأمان أمام القيادات التى بدأنا نعرض أنفسنا وخدماتنا عليها. ولحق بنا فى الإسماعيلية بعد أيام زميلنا المرحوم شوقى البلتاجى فأصبحنا أربعة .

وخطرت ببالنا فكرة أن نستخدم الوقت الضائع فى انتظار أن يستكملوا تحرياتهم عنا– للتأكد من سلامة موقفنا وعدم خطورة انضمامنا إلى الكتائب– أن نقدم خدماتنا إلى جمعية الإسعاف أو الهلال الأحمر حيث أن مكاتبها وإدارتها كانت معروفة .

وبالفعل توجهنا إلى شعبة الهلال الأحمر بالإسماعيلية، وقابلنا سيدة فاضلة كانت ترأس لجنة من السيدات يتولين أعمال الهلال الأحمر بالمدينة، ووجدنا تعاطفا وتفهما كبيرا لرغباتنا، وعرضوا علينا أن ننتقل بمعداتنا من الفندق الذى نقيم فيه إلى مركز الهلال الأحمر بالمدينة حتى نستطيع أن نمارس مهمة الإسعاف على الفور إذا وصلت للمركز إصابات من المواطنين وكان المركز أشبه بدار كبيرة وبه وسائل إعاشة طيبة، وقد رحبنا بالطبع بهذا العرض الذى وفر علينا فى الوقت نفسه إنفاق ما نحمله من مال قليل على الإقامة بالفندق، غير أن إقامتنا فى

دار الهلال الأحمر لم تكن تشفى غليل رغبتنا الحقيقية، فقد كنا نعيش حياة أشبه بجنود المطافئ الجاهزين ليلا ونهارا على استعداد لقيامهم بالواجب دون عمل يذكر إلا إذا حدثت الأحداث، ولذلك فقد كان الهدوء من حولنا يؤلمنا لأننا كنا نعلم أن الأحداث تقع فى كل يوم ولكننا بعيدون عنها، فقد كنا نسمع أخبار المعارك والاصطدامات فى أماكن أخرى فى بورسعيد والسويس دون أن نرى فى الإسماعيلية شيئا قريبا منا .. ولم نكن فى ذلك الوقت نعلم أن القدر يعد الإسماعيلية لتكون بؤرة الأحداث الدامية فيما بعد ذلك .

وكان لزاما علينا أن نفكر فى الانسحاب من العمل مع الهلال الأحمر، ونفكر فى مغادرة الإسماعيلية كلها، فقد بدت لنا هادئة، وهى فى هدوئها هذا ليست المكان المناسب لتحقيق مهمتنا، كان علينا أن نبحث عن المواقع الساخنة .

وجاء الفرج يسعى إلينا عندما أخطرونا أننا على ما يبدو قد اجتزنا اختبار التحريات التى قام بها الأخوان المسلمون عنا، وتأكدوا من صدق نوايانا وعدم انتمائنا لأى جهات أخرى وأن هدفنا لا يتجاوز الحصول على شرف المشاركة المباشرة فى العمل الفدائى . وهكذا وجدنا أنفسنا بالفعل وقد أصبحنا جزءا فى عمل يبدو لنا على الأقل على جانب كبير من الجدية والتنظيم، وتقرر نقلنا إلى موقع فى مدينة القنطرة على حافة قناة السويس مع إحدى كتائب الأخوان المسلمين هناك.

وكان علينا أن نعيش حياهم وإن لم تكن طبيعتنا هى طبيعتهم، والحق يقال أهم بصورة ما قد تعايشوا معنا، ولو أننا كنا دائما تحت الشعور بأننا غرباء بعض الشيء . ولذا فلم نكن نطلع على أى أسرار عن العمليات التى يجرى إعدادها أو الخطط التى تنفذ . وأقمنا فى القنطرة عدة أيام نعيش إلى درجة كبيرة جو العمليات الفدائية ولكن

دون أن تتاح لأى منـــا فرصـــة المشـــاركة المباشـــرة فى إحداها،بل كنا أقرب للوحدات الطبية المؤمّنة فى مواقـــع خلف الخطوط الأمامية .

وأخيرا اقتربنا إلى حد ما من روح العمل الفدائـى وأخذنا نستنشق عبيره عندما نجحت الفرقة التى كنا ننتمي إليها فى إحدى العمليات الجريئة التى خططت بغاية الذكاء والمهارة،

وقد بدأ الفدائيون خطتهم بـــإحداث خلـــل فى الخطوط الحديدية التى كانت تخدم القـــوات البريطانيـــة، وكان ذلك الخلل الذى أحدث عطلا بالخط هـــو الطعـــم استدرجوا به صيدهم الكبير، فقد جاءت كما هو متوقـــع فرقة من المهندسين والفنيين فى حراســـة بعـــض الجنـــود البريطانيين لإصلاح الخط، غير أن التدبير المحكم من قبـــل الفدائيين هو أنهم كانوا قد وضعوا كميات ضخمـــة مـــن الديناميت فى موقع العطل الذى أحدثوه من قبل، وبمجـــرد

أن حضرت القوة الهندسية البريطانية وأخذت تعمـــل فى الموقع لإصلاح الخط الحديدى قـــام الفدائيـــون بتفجـــير عبوات الديناميت من على بعد كبير فتطـــايرت أشـــلاء الإنجليز الذين وقعوا فى تلك المصيدة بغاية السهولة .

ومع أننا لم نشهد تلك العملية بأعيننا فقد انتشـــينا بالعيش فى جوها قانعين بدورنا الذى كان فى الخط الآمـــن منها وحمدنا الله أنه لم يكن هناك حاجة لخدماتنا فقد عـــاد الأفراد الذين نفذوا هذه المهمة دون أن يصاب أى منـــهم بخدش .

ويبدو أن وجودنا فى القنطرة لم يكن مطلوبا بعـــد ذلك، أو أنهم كانوا فى حاجة لنا فى موقع آخر فتقرر نقلنـــا إلى الشرقية لننضم إلى كتيبة تحرير كانت تقيـــم فى مبـــنى بمنطقة تسمى تل بسطة، وقد كان علينا أن نلتزم بتنفيـــذ الأوامر فقد كنا حريصين على البقاء فى صفوف الخدمـــة ، ولكن الهمسات من حولنا كانت تدور بما يفهم منه أنهـــم

كانوا يعدون لعملية أخرى كبيرة فى منطقة القنطرة، وقـــد تؤدى عواقبها إلى إغارة الإنجليز على موقع إقامتنا ...وربما يكون نقلنا بعيدا كان له ما يبرره من حرص على ســلامتنا بوجه خاص، ومع ذلك فلم تسعدنا كثيرا فى الواقع فكــرة إبعادنا حرصا على هذه السلامة .

وعندما بدأ تحركنا للسفر إلى الشرقية تمرد زميلنـــا عزيز عبد العليم، وكان متمردا بطبيعته فهو لم ينخـــرط فى أى سلك عسكرى أصـــــلا ولا يعـــنى كثــــيرا بقواعـــد الانضباط، فصمم على البقـــاء فى القنطـــرة، وألح علـــى المسئولين للسماح له بالبقاء مع العدد القليل الذى تخلـــف هناك، ولابد أنهم قبلوا منه ذلك بالفعل على أساس الإبقاء على فرد واحد من مجموعة الأطباء كما كـــانوا يطلقـــون علينا وهو ما يكفى حاجتهم فى العملية المرتقبة .

وقد تحقق بالفعل ما قصده وتمناه زميلنا عزيز عبـد العليم فقد أتيحت له الفرصة بتصرفه هذا أن يشهد بعينيـه

وأن يروى لنا فيما بعد عن أروع حدث شهده فى حياتـــه وهو نسف قطار حربي بريطانى على حافة قناة الســـويس، وكان عزيز يشبه صورة عربات القطار وهى تتشقلب على بعضها " كما تتشقلب أوراق الكوتشينة " على حد تعبيره وكان دائما لا يخفى سروره بأنه الوحيد الذى تمكن بفضل مخالفته للأوامر أن يشهد ويعيش تلك العملية الرائعة .

"٦"

تجربة فى تل "بسطة"

فى تل بسطة أخذت الأيام تمر أيضا الواحد تلـــو الآخر، ونحن فى كل يوم نتسقط الأخبار عن عملية تُدبّـر هنا أو هناك وأخرى يجرى التخطيط لها ليكون الخـــروج إليها فى هذه الليلة أو تلك، وكان من المفـــروض بحكـــم انضمامنا للكتيبة أن يخرج واحد منا مع كل مجموعـــة إذا استلزم الأمر .

وفى الوقت الذى كان فيه عزيز عبد العليم قـــد ترك الإسماعيلية للبقاء فى القنطرة كان شوقى البلتاجى هـو الآخر لسبب ما قد عاد للإسكندرية ولم يبق فى معسكر تل بسطة إلا مصطفى أبو العينين وأنا .

وكانت المنافسة بيننا شديدة وتدور فى الخفــــاء، وكل منا يعمل على استمالة قائد المعسكر ليختـــاره هـــو

دون الآخر لمهمة الليلة القادمة، وقد كان مصطفى زمياسي وصديقي العزيز معروفا بالمكر والذكاء وكنت أحاول أن أكون أكثر منه مكرا لنيل هذا الشرف .

وأخيرا تحقق حلمي فتلقيت الأمر بالاستعداد للخروج ذات ليلة مع مجموعة للإغارة على معسكرات الإنجليز . وعندما بدأ إعداد السيارات والأسلحة تحت جنح الظلام لم أكن أعرف من تفاصيل الخطة أى شيء، فقط وجدت نفسي وسط مجموعة صغيرة فى سيارة، وسيارة أخرى تسبقها تخرجان بهدوء من المعسكر وتنطلقان فى سكون الليل فى طريق لم يكن لى به أى علم، واستمرت المناورة لإتمام العملية ما يقرب من الأربع ساعات كان الجو أثناءها قارص البرودة، وكنت أنتفض بشدة داخل ملابسي الثقيلة، ولابد من الاعتراف بأن جزءا على الأقل من الرعشة التى كانت تسرى فى بدني لم يكن بسبب برد شهر يناير القارص فى تلك الليلة وحده

وإنما كان رهبة من ظروف الحدث نفسه. فقد كـانت هذه أول مجابهة حقيقية لى مع الخطر الذى كنـت مـن قبـل متشوقا تشوقا جنونيا للمشاركة فيـه، ودارت فى ذهـني خواطر لأطمئن نفسى بأن هذه الرهبة سوف تزول بمجـرد أن تدوي طلقات الرصاص أو الانفجارات وندمج فى جو الحرب والمعركة وهذا ما يحدث للجنود فعلا فى الميدان .

لقد كانت ساعات قليلة حافلة بمشاعر رائعة، هـى فى الواقع مزيج من النشوة والرهبة والخـوف، السـعادة والقلق، وتسيطر عليها الإحاطة بشعور جارف من الرغبـة فى إثبات الذات دون التفكير مطلقا فى إمكانية المـوت أو الإصابة أو ضياع المستقبل.

واستمرت مناورة تلك العملية خـلال سـاعاتها الأربعة وأنا أعيش فى جو ذكريي بما كان يحدث فى سـن الصبا من خروجى مذعورا مرتجفا مع أسرتى من منازلنـا ليلا أثناء سنوات الحرب العالمية الثانية بعـد أن تنطلـق

صفارات الإنذار منذرة بغارة على الإسكندرية ويتوالى بعدها أصوات قصف المدافع وأصوات القنابل ونحن منكمشون فى المخابئ، والناس كلهم فى هلع وخوف من أن تنهدم عليهم بيوتهم فى لحظات كما يحدث لغيرهم فى كل غارة... ثم تنطلق بعد ذلك صفارات الأمان فتهدأ النفوس ويعود الناس إلى بيوتهم.

وكان شعور من هذا القبيل يحيط بى خلال تلك الساعات التى اقتربتُ فيها من الخطر الحقيقى، فقد كان فيها من الرعب والقلق بقدر ما كان فيها من النشوة والسعادة بالمشاركة فى العمل الوطنى الفدائى لتحرير الوطن، وفجأة انطلقت صفارة الأمان أو ما يشبه ذلك، فقد تقرر عودة المجموعة الفدائية للمعسكر بعد إتمام العملية دون أ أشهدها أو أشارك فيها وأخذنا طريقنا للعودة إلى المعسكر، ولم يعد هناك خطر .

وعندما كانت خيوط الفجر قد بدأت تظهر كـان الجو لا يزال قارص البرودة، وكنت لا أزال أرتعش، بعضه ولاشك من البرد وبعضه الآخر من القهر و الإحباط لعـدم اشتراكي المباشر فى العملية .

"٧"

الإسماعيلية التى خدعتنا :

لم تمض على تلك الليلة التى أصابتنى بالإحباط الشديد إلا بضعة أيام أخرى، ثم جاء الحدث الأكبر الذى عصف بما تبقى لنا من قدرة على تحمل الوضع النفسى الذى كنا فيه، فقد تركنا الإسكندرية لأهداف محددة ضحينا فى سبيل تحقيقها بدراستنا ومستقبلنا لنشارك فى العمل الفدائى الوطنى، وها قد مضى ما يزيد على شهر كامل دون أن نخوض معركة نتعرض فيها لخطر مباشر يشفى غليل صدرونا ونفوسنا الظامئة لأداء الواجب على أى صورة وبأي ثمن .

وفجأة اشتعلت الأحداث فى الإسماعيلية، التى كنا قد رحلنا عنها هربا من هدوء الأحوال بها !!

ففى يوم ٢٥ يناير حدثت واقعة الاعتداء الغاشم على قوة البوليس المصرى فى دار محافظة الإسماعيلية بعد أن حوصرت هذه القوة المسلحة بأسلحة البوليس البسيطة ثم قصفت بالأسلحة الإنجليزية المدمرة، واستمات رجال البوليس فى الدفاع عن شرفهم وكرامة وطنهم وهم شبه عزل من السلاح حتى سقط منهم مئات الشهداء والجرحى ونفذت آخر طلقة من ذخيرتهم المتواضعة، وأبلوا بذلك بلاء حسنا جعل من ذلك اليوم عيدا للشرطة يحتفل به حتى اليوم فى كل عام .

وكانت شجاعتهم وبطولتهم قد أرغمت قيادة القوة البريطانية المعتدية والمنتصرة عليهم أن تؤدى لهم تحية التقدير لشجاعتهم وبسالتهم .

وعلمنا أن الإسماعيلية أمضت بعد ذلك أياما عصيبة وهى تشيع شهداءها وتعالج الجرحى والمصابين، ولم

نكن نحن فى المدينة فى هذا الوقت العصيب، حيث كان من الواجب أن نكون .

سبحانك يـــارب، لقـــد أقمنـــا فى الإسماعيليـــة أياما طويلة ننتظر أن يكون لنا دور فى معاركـــها عنـــد اصطدام شبابها مع الإنجليز، لنكـــون بجوارهـــم ونحقـــق الهدف من مهمتنا، ولكن لم تقع هـــذه الحـــوادث علـــى تلك الصورة إلا بعد أن غادرنا الإسماعيليـــة بعـــد نفـــاذ صبرنا من المشاركة المباشرة فى القتـــال أو علـــى الأقـــل فى عمليات الإغاثة والإســـعاف، ويبـــدو أن تصـــاريف القدر كانت ترسم لنا خط السلامة بـــأن نكـــون دائمـــا بعيدا عن المناطق الملتهبة بالمعـــارك .

كان الناس جميعا من حولنا فى ألم شديد لضحايـــا معركة رجال البوليس مع القوات البريطانية، وكنا نحـــن فى ألم نفسى مضاعف لأننا لم نبق فى الإسماعيلية حتى نكـــون فى قلب هذه الأحداث ..

"٨"

حريق القاهرة يقرر النهاية

واندفعت الأحداث التاريخية بعد ذلـــك تتـوالى بسرعة خارقة لتفرض علينا أن نعيد حساباتنا، فقد اندلـع حريق القاهرة الشهير يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ وتطـــايرت الأنباء تصوّر الدمار الذى حدث بالقاهرة وجـــو التوتـر السياسى الذى أعقب تلك الكارثة، وأقيلـــت الحكومـة وأصيبت الحركة الوطنية بضربة قاصمة .

وأصبح لزاما علينا أن نقرر ما إذا كنا ســنبقى فى منطقة الشرقية والاستمرار فى صفـــوف الفدائيــين أو أن نعود إلى دراستنا . وقررنا أن نزور القاهرة لـــنرى أثـر الأحداث، وكانت تجربة قاسية على النفـــس إلى أقصـى درجة، فالدمار كان فى كل مكان بالعاصمة،وآثار الحرائـق تنطق بهول المأساة التى لم تكن أسرارها معروفة، وأظـــن أن

كثيرا من تلك الأسرار لا يزال غارقا فى الغموض حتى اليوم – ومنظر الشوارع وهى شبه خالية من الناس، وقوات الجيش تفرض حظر التجول، والجو الكئيب يخيم على كل مكان، والناس فى ذهول وأسى وقلق شديد على مستقبل البلاد .

وكان هذا وحده كفيلا باتخاذ القرار الحاسم بالعودة فورا إلى الإسكندرية لاستئناف الدراسة وتعويض ما فات علينا أثناء هذه المهمة التى عدنا منها بسلامة أجسادنا ولكن بجروح عميقة فى نفوسنا .

وقد كان علينا أن نختزن هذا الأسى مع ما اختزناه من دروس التجربة العميقة، وأن نكبت المشاعر حتى نتفرغ لبعض الوقت لتعويض ما فات من دروس ومحاضرات وتدريبات فيما تبقى من الوقت حتى موعد الامتحان .

وأحمد الله على أننى قد استطعت فى الوقت المتاح أن أستدرك بعض ما ضاع منى وإن لم يكن فى الإمكان أن أفعل الكثير، فقد دفعت الثمن الغالى لتخلفي عن الدراسة شهرا ونصف وهو عدم حصولى فى تلك السنة على درجة التفوق التى لم أكن لأفقدها فى أى مرحلة من مراحل دراستى، وقد كان حصولى على درجة جيد فى ذلك العام بدلا من الحد الأدنى لى وهو " جيد جدا" هو ذلك الثمن .

وجدير بالذكر أنه لم يكن مألوفا تجاوز الطلاب فى هذا الزمن فى التقدير العام عن درجة جيد جدا مثلما نرى الآن من حصول عدد ضخم من الطلاب على تقدير الامتياز التى يبدو أن قيمتها قد هبطت مثلما هبط العديد من القيم الأخرى مع الزمن.

ولا أشعر بذرة ندم على ضياع فرصة التفوق بالرغم من استمرار أثر ذلك فيما بعد لفترة طويلة، فالتجربة الإنسانية والدروس العملية فى أمور الحياة التى

عشتها مع زملائى فى تجربة الانضمام إلى كتائب الفدائيين لم تكن قيمتها لتقدر بأى ثمن وعلى أى صورة .

وانطوت صفحة مضيئة من رحلة حياتنا فى كلية طب الإسكندرية، وكان القدر يعدُّ لفتح صفحة جديدة وهى إنشاء جماعة أصدقاء المرضى التى أحكي قصتها فى مكان آخر .

وكذلك كانت مصر كلها تستعد لفتح صفحة جديدة من تاريخها، وهى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ التى اندلعت بعد شهور قليلة من معارك الفدائيين الساخنة ضد الإنجليز فى منطقة قنال السويس .

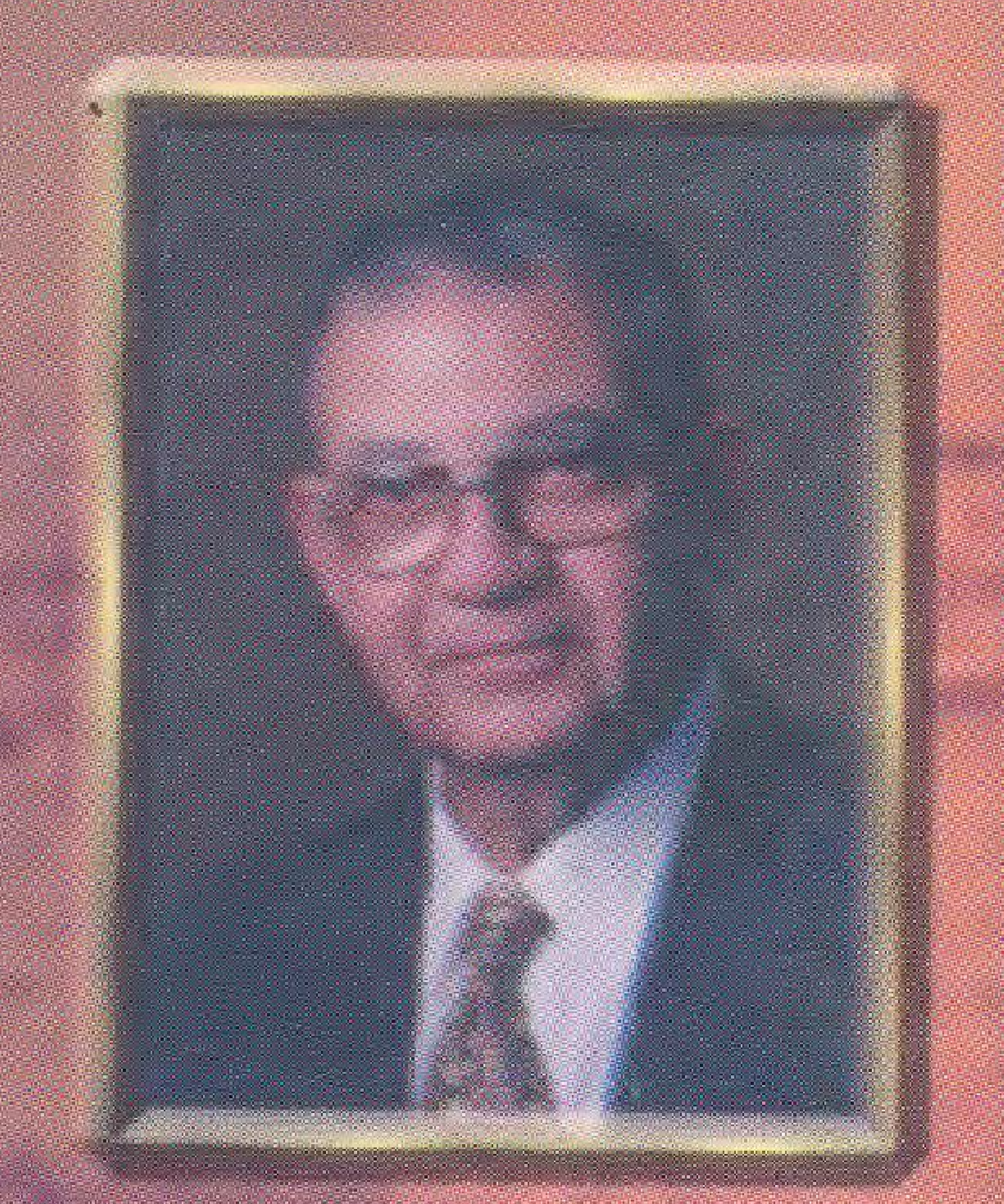
ولوقائع الأحداث فى كلية الطب مع ثورة يوليو قصة أخرى، لها أيضا مكان آخر .

مجموعة وقائع طبية تحكي قصصاً واقعية لأحداث عايشها المؤلف خلال فترة تزيد عن نصف قرن من حياة حافلة بالتجارب العميقة منذ أن كان طالباً يدرس الطب إلى أن بلغ أرفع الدرجات الجامعية وسافر إلى جميع أرجاء العالم وتولى العديد من المسئوليات في مصر وفي المنظمات العلمية الدولية ولم يكن في كل ما رآه وسمعه وعايشه مجرد شاهد عيان وإنما كان صانعاً للأحداث ومشاركاً إيجابياً في كل ماترويه هذه المجموعة من الكتب الموثقة عن تلك الأحداث .

هذا الكتاب

يروي الوقائع الصادقة لصفحة مشرقة من مشاركة الشباب من طلاب الطب في الإسكندرية في أداء الواجب الوطني ضمن كتائب الفدائيين المصريين لمقاومة الإحتلال البريطاني لمنطقة القنال عام ١٩٥٢.

الناشر



الدكتور مرسى عرب

- أستاذ الأمراض الباطنة بكلية طب الإسكندرية .
- ولد بالإسكندرية ١٩٣٢ وتخرج من كلية الطب ١٩٥٥ وأصبح أستاذاً ثم رئيساً لأقسام الأمراض الباطنة بها.
- تولى مناصب قيادية في الجمعيات العلمية على المستوى القومي والدولي (نائب رئيس الإتحاد الدولي للسكر والمنظمات العربية والإفريقية ودول البحر المتوسط) .
- أسس العديد من الجمعيات والمؤسسات الأهلية لخدمة المرضى والطلاب والخريجين ودعم التقدم في العلوم الطبية ودعم القيم الإنسانية والحضارية .
- زار مختلف بلاد العالم بحكم علاقا[...] العلمية الدولية وتقلد وظائف ش[...] في جامعتي لندن والنيوى بالولايات المت[...]
- صدر له الى جانب مؤلفاته الع[...] في الطب الباطني وفي تاريخ ال[...] العربي مؤلفات في الشعر والأدب
- عضو اتحاد الكتاب المصريين

مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع

١٤٤ ش طيبة ـ سبورتنج ـ الإسكندرية ت : ٠٣/٥٩٧٢١٧١ تلفاكس : ٠٣/٣٩٣١٢٨٤

مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع ٧ ش علام حسين ـ الظاهر ـ القاهرة ت : ٠٢/٦٨٤٦٧٤٦